مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn:2600-6421
Issn : 2353-0464

الملامح الجمالية لصور الطباق في الذكر الحكيم.

اسم ولقب المؤلف : عبد الرحمان بوزنون.
الدرجة العلمية: أستاذ محاضر ب.
مؤسسة الانتماء: جامعة امحمد بوقرة بومرداس.
البلد : الجزائر.
رقم الهاتف الجوال : 0550212123،
البريد الإلكتروني: A.bouzennoune@univ-boumerdes.dz

ملخص :

تعددت مظاهر الحسن في آيات الذكر الحكيم وتنوعت مناحي الجمال فيها بما أعجز البلغاء عن حصرها واستكمالها، والملاحظ في هذا الباب توزع هذه البراعة اللغوية بين ظواهر لفظية ومقاصد دلالية وملامح صوتية وتموقعات نظمية.

وإن من أبرز الفنون البديعية التي جمعت عدة مناح بلاغية في كتاب الله تعالى لوني الطباق والمقابلة، وذلك لما تضمنه هذان اللونان من عناية بارزة بالجانب اللفظي البنوي، واهتمام ظاهر بالملمح المعنوي الدلالي، وبالأثر البلاغي لموقع الألفاظ ورصفها في الكلام.

ونظرا لما لاحظته من غفلة وسهو عن جماليات هذا الباب فقد عزمت على بحث هذا اللون البلاغي سعيا مني للكشف عن محاسن هذا التصوير البلاغي ورغبة في الإجابة عن الإشكالات المتعلقة بهذا الباب تحفيزا لمطالعة هذا الباب وتلمس محاسنه وجمالياته، مركزا في هذا اللون على إبراز تجلياته في آيات الذكر الحكيم وما سطره فرسان البيان في إظهار محاسنه ولطائفه.

الكلمات المفتاح : الطباق؛ التقابل؛ التضاد؛ البديع؛ المحسنات اللفظية.

Abstract : The manifestations of the beauty in the verses of the Holy Quran varied and the aspects of beauty in them varied, including the ability of puberty to limit and complete them, and it is noticeable in this section that this linguistic prowess is distributed

between verbal phenomena, semantic intentions, phonological features and systemic expectations.
And one of the most prominent of the innovational arts that combined several rhetorical aspects in the Book of God Almighty are the colors of contiguity and the corresponding, due to the outstanding attention paid to by these two colors of the filial verbal aspect, and an apparent interest in the semantic feature, and the rhetorical effect of the position of words and their alignment in speech.
In view of this negligences I observed about the aesthetics of this section, I resolved to examine this rhetorical color in pursuit of me to reveal the merits of this rhetorical depiction and desire to answer the problems related to this section as a motivation to read this section and touch its merits and aesthetics, focusing in this color on highlighting its manifestations in verses The Holy Quran and what the Knights of the Bayan wrote to show his goodness and kindness.
.**Keywords :** counterpoint; Contrast; Pronunciation improvers.

1- مقدمة

اعتنى البلاغيون في تحليلاتهم للنصوص اللغوية بثنائية اللفظ والمعنى من خلال تحديد العلاقة الكامنة بينهما وبيان التناسب الواقع بين الاستعمالات المختلفة لها في سياقات الخطاب المختلفة، ولعل من أبرز المجالات التي تجلت فيها هذه العناية بوضوح مجال المحسنات البديعية لما يكثر فيه من اهتمام بالجانب اللفظي على حساب الدلالة المعنوية طلبا للتزيين ورغبة في التنميق والتحسين.

إنّ سلوكَ طريقة إيراد المتضادّات ونصبِ المتقابلات في الكلام نهجٌ ذائِعٌ في كلام العرب، بَلهُ العجم(ينظر: ضياء الدّين بن الأثير 1420هـ ج2/ص266)، وذلك لِما يحويه هذا الأسلوب - بالإضافة إلى التّناسق اللّفظيّ والجمال الشّكليّ - من تحريك مكامِن التّدبّر ومعاقد التّفكير في عقل الإنسان كيما يَفقَه حقائق الأشياء من خلال مقابلتها بما يُخالِفُها، فيُدرِك التَّفاضلَ والتَّمايز بينها بما يُعطِي التّصوّر الكامل عن الأشياء والتّصنيف الدّقيق لمراتبها،

وإن من أظهر المحسنات اللفظية التي لاقت اهتماما بارزا وعناية ظاهرة من أئمة البلاغة لون الطباق بصوره المتعددة، ومن أجود ما سطر في بيان أهميته قول

بعضهم:" الطّباق والمقابلة من الأمور الفطريّة المركوزة في الطِّباع الّتي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضِّدّ أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضدِّه" (أبو موسى أحمد إبراهيم 1388هـ- 1969م، ص471).

ونظرا لما لاحظته من اختلاف في ضبط مصطلحات هذا الباب وتباين في توصيف أقسام هذا النوع إضافة إلى قلة الحديث عن محاسن هذا اللون في كتاب الله تعالى فقد ارتأيت تخصيص هذا الباب بالدراسة والبحث منطلقا من الإشكالية الآتية: ما هي أبرز اللفتات الجمالية للطباق بأقسامه المتعددة في القرآن الكريم؟

وانطلاقا من هذا التساؤل العلمي فقد كان قصدي تحصيل أهداف عدة منها: ضبط المصطلح الدقيق لهذا العلم، وتحديد الأقسام البلاغية المتفرعة عنه، وإبراز جمالية هذا اللون في القرآن الحكيم من خلال استعراض بعض الشواهد المندرجة تحت مسماه، استعنت بالمنهج التحليلي لسبر أقوال العلماء ودراسة ما أوردوه من شواهد ونصوص.

ولأجل تحقيق هذه الأهداف فإني استعنت بالمنهج التحليلي لسبر أقوال العلماء ودراسة ما أوردوه من شواهد ونصوص، وخير ما يبنى عليه هذا البحث تفصيل الحديث في هذا اللفظ من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، ثم تفصيل أقسامه وما يقابلها من أمثلة وشواهد فأقول وبالله أستعين:

- **تعريف الطباق والخلاف في مدلوله.**

الطباق في اللّغة مِن "تطابَقَ الشّيئان" إذا تساويا واتّفقا، و"طابقتُ بين الشّيئين" إذا جعلتهما على حَذوٍ واحد وألزقتُهما، ويُقال:هذا الشّيء وِفقَ هذا ووِفاقُه وطِباقُه وطابِقُه، و"المطابَقة" أنْ يضع الفرسُ رِجلَه فِي مَوضِع يدِه (ينظر: الأزهريّ 2001م ج9/ص30) وابن منظور الإفريقيّ، 1414، ج10/ص209).

وقد سار جمهور البلاغيّين في تعريف هذا المحسّن المعنويّ اصطلاحا على الإجماع الذي حكاه أبو هلال العسكريّ في قوله:" قد أجمع النّاس أنّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشّيء وضدِّه في جزء من أجزاء الرّسالة، أو الخطبة، أو البيت من بيوت القصيدة، مِثل الجمع بين البياض والسّواد، واللّيل والنّهار، والحَرّ والبرد" (أبو هلال العسكريّ، 1406هـ - 1986م، ص 307) كما ذكر ابن الأثير إطباق أهل البلاغة على ذلك باستثناء أبي الفرج قدامة بن جعفر فقال:" وقد أجمع أرباب هذه

الصّناعة على أنّ المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشّيء وضدّه، كالسّواد والبياض، واللّيل والنّهار،وخالفهم في ذلك قدامة بن جعفر الكاتب"(ضياء الدّين بن الأثير 1420هـ ، ج2/ص266).

وكما ألمح ابن الأثير في كلامه السابق فإنّ قدامة بن جعفر قد أَلبَسَ هذا المصطلَح غير هذا المعنى، وسلَك به ضدَّ هذا الاتِّجاه، إذ أنّه يرى أنّ المطابَقةَ تماثُلُ المادّة في اللّفظتين المتّفقتين شكلا والمتغايرتين معنىً، والّذي يُعبّر عنه سائر البلاغيّين بمصطلح "الجِناس".

وفي ذلك يقول قدامة (قدامة، د ت. ص 162):" قد يضع النّاس من صِفات الشّعر: المُطابِق والمُجانِس، وهما داخِلان في باب ائتِلاف اللّفظ والمعنى، ومعناهما أن تكون في الشّعر معانٍ متغايِرة قد اشتَرَكت في لفظة واحدة وألفاظ متجانِسةٍ مشتقّة، فأمّا المطابِق فهو ما يشترك في لفظة واحدة بعينها، مثل قول زياد الأعجم(البيت في أبو هلال العسكريّ، 1406هـ - 1986م ص307 وابن حجة الحمويّ 2004م 157/1):

وَنُبِّئتُهُمْ يَسْتَنْصِرُونَ بِكَاهِلٍ ... وَلِلُّؤْمِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسِنَامُ".

فالسِّنام واحدُ أسنِمة الإبل، ولفظة كاهل الأولى اسم، وأما الثّانية فيراد بها العضو الذي ما بين الكتفين، والجناس بينهما هو الشّاهد على مقصود قدامة في كلامه المتقدم،

وأمّا صورة الطِّباق الاصطلاحيّ المعروف فإنّ أبا الفرج قدامة قد عَبَّر عنها بـ"التّكافؤ"، وذلك في قوله:" ومن نعوت المعاني التّكافؤ، وهو أن يصِفَ الشّاعر شيئاً أو يذُمَّه أو يتكلّم فيه بمعنىً ما، أيّ معنىً كان، فيأتي بمعنَيَين متكافِئين، والّذي أريدُ بقولي: متكافئين، في هذا الموضع، أي: متقاومين، إمّا من جهة المُضادَّة، أو السّلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التّقابل، مثل قول أبي الشَّغب العبسيّ (أحمد النّويريّ، 1423هـ ، ج7/ص100، وابن حجة الحمويّ، 2004م، ج1/ص157):

حُلْوُ الشَّمَائِلِ وَهُوَ مُرٌّ بَاسِلٌ ... يَحْمِي الذِّمَارَ صَبِيحَةَ الإِرْهَاقِ

فقوله: حُلوٌ ومُرٌّ: تكافُؤ"(قدامة، د ت. ص 148).

وهذا الخروج من قدامةَ عن سبيل أهل الفنّ وما تعارفوا عليه من مصطلحات أَسهَم في إنشاء نقاشٍ علميٍّ ثَريٍّ حوالي هذه المسألة بين أئمّة اللّغة وفحولها، فمِن ذلك ما أورده أبو عليّ الحاتميُّ أنّه "قيل لأبي الحسن عليّ بن سليمان . وكان أعلم

مَن شاهدتُه بالشّعر:" أجد قوماً يخالفون في "الطِّباق"، فطائفة تَزعُم . وهي الأكثر. بأنّه: ذِكرُ الشّيء وضِدِّه بهما، لا المعنى، وطائفة تخالِف ذلك فتقول: هو اشتراك المعنيَين في لفظ واحد"، فقال الأخفش:"من هذا الّذي يقول هذا؟"، قلت:" قدامة بن جعفر وغيره، فأمّا قدامة فقد أَنشَد (البيت في: الأفوه الأوديّ، 1998م ، ص 83):

وَأَقْطَعُ الهَوْجَلَ مُستَأْنِساً ... بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَنتَرِيس ".

فقال:" هذا يا بُنيَّ هو "التّجنيس"، ومَن زَعَم أنّه "طباق" فقد ادَّعى خِلافاً على الخليل والأصمعيّ"، فقيل له:" أفكان يعرِفان هذا؟"، فقال:" سبحان الله!، وهل غيرهما مِن عِلمِ الشّعر وتمييز خبيثه من طيّبه؟" (الحمويّ 2004م ج1/ص157 و النّويريّ 1423هـ ج7/ص98).

ويعلِّق الآمديّ على فِعل قدامة بقوله:" ما علِمتُ أنّ أحداً فَعلَ هذا غير أبي الفرج، فإنّه وإن كان هذا اللّقب يَصِحُّ لموافقته معنى الملقّبات، وكانت الألفاظ غير محظورة، فإنّي لم أكُن أحبُّ له أن يُخالِف مَن تَقدَّمه مثل أبي العبّاس عبد الله بن المعتزّ وغيره ممّن تكلَّم في هذه الأنواع وأَلَّف فيها إذ قد سبقوه إلى اللّقب وكَفَوه المَؤونة" (الآمديّ، 1994م 291/1).

ويقول ابن رشيق في نفس السّياق:" المطابقة عند جميع النّاس: جمعُك بين الضِّدَّين في الكلام أو بيت الشّعر، إلّا قدامة ومَن اتّبعه، فإنّهم يَجعلون اجتماعَ المعنيين في لفظة واحدةٍ مُكرَّرةٍ طِباقاً، وقد تَقدَّم الكلام في باب "التّجانُس"، وسمّى قُدامة هذا النّوع الّذي هو المطابقة عندنا "التّكافؤ"، وليس بطباقٍ عنده إلّا ما قَدَّمتُ ذِكره، ولم يسمِّه "التكافؤ" أحدٌ غيره وغير "النّحّاس" من جميع مَن علِمتُه"(ابن رشيق، 1401هـ - 1981م ج2/ص5).

ويرى عبد العظيم المظعني أن الطباق في القرآن الكريم - ومثله كل فنون البديع - يؤدى دوراً هاماً في مظاهر إعجازه، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوبه قد سلم – مع كثرته - من التكلف بل هو آية الحسن ومصدر العجب، بينما نرى كل مسرف فيه يسير ثم يكبوا ويصيب ثم يخطئ (المطعني، 1413 هـ - 1992م ج2/ ص419) .

ومكمن الحسن والرقي في استخدام القرآن لأسلوب التقابل بين المتعارضات هو أن جميع ما ورد في القرآن من طباق بالجمع بين المتضادين "كانت الكلمة فيه مستقرة في مكانها تمام الاستقرار، سواء كان التضاد لفظا أو معنى، حقيقة أو مجازا، إيجابا أو سلبا" (أحمد عبد الله البيلي البدوي، 2005 ص: 143).

في حين يشير عبد الرحمن حبنكة الميداني إلى أن العنصر الجمالي في الطباق هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أن المتقابلات أقرب تخاطرا إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات (الميداني، 1416 هـ - 1996م ج2/ص 378)، وقد صاغ بعض الشّعراء هذا المعنى في بيت لطيف قال فيه (يراجع البيت في ابن سنان الخفّاجيّ، 1402هـ - 1982م ص 64):

ضِدَّانِ لمّا اسْتَجْمَعَا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنُهُ الضِّدُّ

وقريب من ذلك قول أبي الطّيّب المتنبّي (المتنبّي، د ت، ج1/ص22):

وَنَذِيمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ

ويلاحظ في هذه التقريرات البلاغية من هؤلاء الأعلام أن براعة محسن الطباق في القرآن الكريم تنبع من جودة الربط بين الحسن اللفظي والتناسق النظمي والمعاني الدلالية في صورة تشد العقول وتبهج الأسماع بعيدا عن الاهتمام الأصم باللفظ ولو كان ذلك على حساب الدلالات والمعاني.

ومن أمثلة هذا اللون البلاغي في كتاب الله تعالى ما جاء في قول الله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} [النجم: 43] ففي هذا المثال جمع لحالتين متعارضين تعتريان الإنسان في مختلف مراحل حياته.

وفي ذلك يقول الطاهر بن عاشور:" ولا يخلو الإنسان من حالي حزن وسرور لأنه إذا لم يكن حزينا مغموما كان مسرورا لأن الله خلق السرور والانشراح ملازما للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه لأنه إذا كان سالما كان نشيط الأعصاب وذلك النشاط تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة.

فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكر بالصانع الحكيم، ويبشر إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا عن مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحد ... وفي الاعتبار بخلق الشيء وضده إشارة إلى دقائق حكمة الله تعالى. وفي هذه الآية محسن الطباق بين الضحك والبكاء وهما ضدان" (ابن عاشور، 1984م ، ج27/ص141 - 142).

ومن استعمالات هذا الطباق في كتاب الله تعالى ما جاء في قوله سبحانه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } [البقرة: 216].

فقد جمعت هذه الآية بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي، فالمقابلة بين

الكراهية والحب، والخير والشر، والطباق بين ثبوت العلم لله، ونفيه عن البَشر(المطعني، 1413 هـ - 1992م ج2/ ص414).

وقد نبه بعض البلاغيّين إلى حصول المطابقة أحيانا بصورة مقاربة وغير محضة، وممّا جاء في ذلك قول ابن رشيق القيروانيّ تحت باب: ما اختلط فيه التّجنيس بالمطابقة:" وأمّا قولك:" قَضَيتُ واقتَضيتُ" فظاهره تجنيس وباطنه طباق، إلّا أنه غير محض، وكذلك قولك:" أَخذتُ وأَعطيتُ"، لأنّ الأخذ ضِدَّه التَّرك، والإعطاء ضِدُّ المنع" (ابن رشيق، 1401هـ - 1981م ج 2/ص14).

ويُمثِّل ابن سنان الخفّاجيُّ للمطابقة غير المحضة بما جاء في أعذب بيتٍ قيل في المقابلة من جهة جمعه خمس متضادّات في الكلام، وهو قول أبي الطّيّب (المتنبّي، د ت، ج1/ص161):

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي ... وَأَنثَنِي وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي

إذ يقول ابن سنان الخفّاجيّ منكِّتا على هذا البيت:" وأصحاب صناعة الشّعر لا يجعلون اللّيل والصّبح ضِدَّين، بل يجعلون ضِدَّ اللّيل: النّهار، لأنّهم يراعون في المضادَّة استعمال الألفاظ، وأكثر ما يُقال: اللّيل والنّهار، ولا يقال: اللّيل والصّبح، وبعضهم يقول في مثل هذا:" مطابق محض ومطابقٌ غير محض، فاللّيل والصّبح عنده من بيت المتنبّي طباق غير محض" (ابن سنان، 1402هـ- 1982م ص201).

ويقول حازم القرطاجنيّ في إحدى إضاءاته:" المطابقة تنقسم إلى مَحضَة وغير محضة، فالمحضة مفاجأةُ اللّفظ بما يُضادُّه من جهة المعنى، كقول جرير بن عطية (جرير، 1986م، ص 501):

وَبَاسِطُ خَيْرٍ فِيكُم بِيَمِينِهِ ... وَقَابِضُ شَرٍّ عَنْكُمْ بِشِمَالِيَّا

فقوله:" باسط وقابض، وخير وشر" من المطابقات المحضة..." إلى أن يقول:"وغير المحضة تنقسم إلى: مقابلة الشّيء بما يتنزل منه منزلة الضّدّ، وإلى مقابلة الشّيء بما يخالفه" (حازم القرطاجنيّ، 2008م، ص 43).

ومن الأمثلة من كلام البلاغيين على نماذج من الطباق غير المحض ما جاء في تفسيرهم قول المولى جلّ وعلا: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } [الأحقاف: 12]، فاللّفتة البلاغيّة البديعة في هذا الخطاب القرآنيّ تمثلت في نعت أولي الإيمان بالمحسنين مع وصف الظّلم المنصرف إلى الكفّار، غير أنّ كلمتا الظّلم والإحسان ليستا كاملتا التّضادّ، ولا خالِصتا التّقابل، ذلك أنّ

مقابل الظّلم هو العدل، والإحسان مقابله الإساءة.

وفي تخريج هذا التّقابل غير المحض بين لفظتي الظّلم والإحسان في هذه الآية يذكر الشّيخ الطّاهر بن عاشور تعليلا لطيفا إذ يقول:" والّذين ظلموا هم المشركون، { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13] ، ويُلحَق بهم الّذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين، ولذلك قوبِل بالمحسنين، وهم المؤمنون الأتقياء، لأنّ المراد ظُلمُ النّفس ويقابله الإحسان" (ابن عاشور،1984م ، ج26 / ص26).

وممّا يشهد لحمل الإحسانَ هنا على الإيمان ما جاء من نصب التّقابل بين الإيمان والظّلم في غير ما موضع من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى في محكم تنزيله: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: 82] وقال عزَّ مِن قائل: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا } [نوح: 28].

ويَحسُن الإشارة ها هنا إلى أنّ أئمّة البلاغة قد قيّدوا حُسن هذا الصّنف من الطِّباق بانتفاء البُعد الشّديد بين المُتقابلات بحيث لا يظهر وجه التّضادّ بينها، وقد مثّلوا له بقول أبي الطّيّب المتنبّي (المتنبّي، د ت، ج4/ص141):

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

يقول ابن الأثير معلّقا:" فإنّ المقابلَة الصّحيحة بين المحبّ والمُبغِض، لا بين المُحبّ والمُجرِم، وليست متوسّطة أيضا حتّى يَقرُب الحال فيها، وإنّما هي بعيدة، فإنّه ليس كلُّ مَن أجرم إليك كان مُبغِضا لك"(ضياء الدّين بن الأثير 1420هـ ج2/ص275).

ومن الأنواع التي قررها البلاغيون للون الطباق ما يعرف بالطباق المعنوي، وقد مثلوا له بقول الله تعالى: {قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} [يس: 15، 16] معناه ربنا يعلم إنا لصادقون، ومن ذلك أيضا قوله عز وجل: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} [البقرة: 22]، فقد قال فيها أبو علي الفارسي:" لما كان البناء رفعا للمبني قوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء ومن ثم وقع البناء على ما فيه ارتفاع في نصيبه إن لم يكن مدرا" الزّركشيّ،1376هـ-1957م ج3/ص456).

ومما حمله أبو حيان على الطباق المعنوي ما كان بين حرفين من حروف المعاني، ومن ذلك ما ذكره في قول الله تعالى: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ

وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة: 286]، إذ قال:" تضمنت هذه الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء، منها: الطباق في وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه والطباق المعنوي في: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت لأن: لها، إشارة إلى ما يحصل به نفع، و: عليها، إشارة إلى ما يحصل به ضرر" أبو حيّان الأندلسيّ، 1420هـ ج2/ص767).

ولم أدر ما وجه جعل أبي حيان التطابق بين حرفين من قبيل المعنوي على خلاف صنيع عامة البلاغيين الذين يجعلونه من قسم الطباق العادي غير أنه يقع بين حرفين كما يقع بين اسمين أو بين فعلين أو بين اسم وفعل، ومن ذلك قول حامد عوني:" أو "حرفين" نحو قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} فالجمع بين "اللام وعلى" مطابقة؛ لأن في "اللام" معنى المنفعة، وفي "على" معنى المضرة وهما متضادان" (حامد عوني ، د ت، ج163/1).

ومما يلحق بالطباق المعنوي ما سماه بعض البلاغيين بالطباق الخفي، وإليه أشار السيوطي في قوله:" ومنه نوع يسمى الطباق الخفي كقوله: {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا } [نوح: 25] لأن الغرق من صفات الماء فكأنه جمع بين الماء والنار قال ابن منقذ وهي أخفى مطابقة في القرآن، وقال ابن المعتز: من أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: 179] لأن معنى القصاص القتل فصار القتل سبب الحياة"(السيوطي، 1394هـ -1974م ، ج3/ص 326).

ومن جميل ما سيق في هذا الباب من قريض الشعر قول الفرزدق (ينظر في العسكري، 1406هـ - 1986م، ص: 313):

لعن الإله بني كليب إنهم ... لا يغدرون ولا يفون لجار

يستيقظون إلى نهيق حمارهم ... وتنام أعينهم عن الأوتار

وعن جمال هذه الصورة يقول ابن أبي الأصبع العدواني:" غير أن هذين البيتين من أفضل شعر سمعته في هذا الباب، لأنهما جمعا بين طباقي السلب والإيجاب، ووقع فيهما مع الطباق تكميل لم يقع مثله في باب التكميل، لأن هذا الشاعر لما وصف هؤلاء القوم بالضعف حيث قال: " لا يغدرون " وعلم أنه لو اقتصر على ذلك احتمل الكلام ضرباً من المدح، إذ تجنب الغدر قد يكون عن ضعف وعن عفة، أتى بصريح الهجاء ليدل بذلك على أنه أراد بكلامه الأول محض الهجاء، واقتضت الصناعة أن يأتي بذلك في لفظ ينتظم به وبما بعده طباق، فقال: " ولا يفون لجار " فتكمل الهجاء، إذ سلبهم الغدر والعجز والوفاء للؤم.

وحصل في البيت مع الطباق والتكميل الدالين على غاية الهجاء إيغال حسن، لأنه لو اقتصر على قوله " لا يغدرون ولا يفون " تم له القصد الذي أراده، وحصل المعنى الذي قصده، لكنه لما احتاج إلى القافية ليصير الكلام شعراً أفاد بها معنى زائداً حيث قال: " لجار " لأن الغدر بالجار أشد قبحاً من الغدر بغيره (ابن أبي الأصبع ، د ت، ص114).

فمكمن البراعة ومنبع الحسن في هذين البيتين هو استطراد الفرزدق في هجاء بني كليب باستقراض صورة الطباق في خصلتي الغدر والوفاء، ثم شفع ذلك بصرف عدم الوفاء للجيران دفعا لتوهم طيبتهم ومسالمتهم للناس، كما أوغل في تقرير هذا الهجاء بوصفهم بالفزعة والاستنفار من نهيق الحمر خوفا من اللصوص، ولكنهم ساهون غافلون عن الثأر لكرامتهم وشرفهم.

- المقابلة:

أصل المقابلة في اللّغة مِن: أَقبلَ على الشّيء وقابله مقابلة إذا واجهه، وقابل الكتاب بالكتاب: عارضه به، وتسمّى الشَّاة "المُقابَلَة" إذا شُقَّت أُذنُها من قِبل وَجهِهَا (الجوهريّ، 1407هـ - 1987م، ج5/ص1797، والزّبيديّ، د ت، ج30/ص219).

ويذهب جمهور البلاغيّين في تعريفهم للمقابَلَة إلى عَدِّها أحد أقسام الطِّباق وفروعه غير أنّها تمتاز عنه بتعدّد المتضادّات فيها، ويُستَشَفّ ذلك من كلام ابن رشيق القيروانيّ حين قال عن المقابلة أنّ:" أصلها ترتيب الكلام على ما يَجِب، فيُعطَى أوّل الكلام ما يليق به أوّله، وآخره ما يليق به آخره، ويأتي في المُوافِق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابَلَة في الأضداد، فإذا جاوز الطِّباق ضِدَّين كان مقابلة" (ابن رشيق، 1401هـ - 1981م ج2/ص15).

وكان السّكّاكيّ أصرح تعبيرا في دخولها في مسمّى الطِّباق حيث قال:" ومنه ـ يقصد من الطِّباق ـ المقابلة، وهي أن تَجمَع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضِدَّيهما، ثمّ إذا شَرَطتَ هنا شرطاً شَرطتَ هناك ضِدَّه" السّكّاكيّ، 1407 هـ - 1987م ص424) ، وعلى هذا المِنوال جاء أيضا قول الخطيب القزوينيّ:" ودخل في المطابقة ما يُخَصُّ باسم المقابلة، وهو أن يُؤتَى بمعنيَين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثُمّ بما يقابلهما أو يقابلها على التّرتيب" (القزوينيّ، 1998م، ص321).

وما يُمكنني الإسهام به ممّا لاحظته على تعريفي هذين العالمين الجليلين هو اشتراطهما التّوافق بين أفراد الطّرف الأوّل لصورة المقابلة، وهذا ليس بلازم ـ في رأيي

. إذا توفر عنصر التّضادّ . ولو جزئيّا . مع أفراد الطّرف الثّاني المتمّم لهذه الصّورة البديعيّة، وما يزيد اليقين بصحَّة هذا الاعتراض هو إطلاق كثير من البلاغيّين صفة المقابلَة على عديد الأبيات من غير وجود توافق صريح بين أفراد الجزء الأوّل منها.

هذا ومن أجود ما يُمثِّل به البلاغيّون لصورة المقابلة من كتاب الله ما جاء في قول الله عز وجل:" {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 26، 27].

ففي هذا النص أربعة أمثلة من أمثلة الطباق:

الأول: الطباق بين: "تؤتي"، و"تنزع" فهما متقابلان تقابل تضاد.

الثاني: الطباق بين: "تعز" و"تذل" وهو كالأول.

الثالث: الطباق بين: "تولج الليل في النهار" و"تولج النهار في الليل".

الرابع: المقابلة بين: "وتخرج الحي من الميت" و"تخرج الميت من الحي"، ويلاحظ هنا أن في كل من الجملتين طباقا، وأن في الجملتين معا مقابلة، فالحي في الأولى يضاد الميت في الثانية، والميت في الأولى يضاد الحي في الثانية، وقد جاء هذا التقابل في الثانية على الترتيب الذي جاء في الأولى (الميداني، 1416 هـ - 1996م ج2/ص 378).

ومن أبرع صور المقابلة في كتاب الله أيضا ما جاء في قول المولى جل وعلا: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ } [فاطر: 19، 20]، فأنت تراه يعقد الموازنة بين هذين الضدين ولا مفر من الجمع بينهما في الجملة لعقد هذه الموازنة التى تبين عدم استوائهما.

يقول الآلوسي في تفسير هذه الآيات الكريمات:"لا يخفى ما فيه من الطباق بين الأعمى والبصير وبين الأصم والسميع، وقدم ما للكافرين قيل: مراعاة لما تقدم ولأن السياق لبيان حالهم، وقدم الأعمى على الأصم لكونه أظهر وأشهر في سوء الحال منه.

وفي البحر إنما لم يجىء التركيب كالأعمى والبصير، والأصم والسميع ليكون كل من المتقابلين على إثر مقابلة لأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع وذلك هو الأسلوب في المقابلة والأتم في الإعجاز" (الآلوسي ، 1415هـ، ج6/ ص235).

وكما أشرنا سابقا إلى وجود طباق خفي فقد نبه بعض البلاغيين إلى ورود صور من التقابلات على وجه خفي، ومثال ذلك ما ذكروه عند قول الله تعالى:

{إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119)} [طه:118.119]، جاء بالجوع مع العري، وبابه أن يكون مع الظمأ، وبالضحَى مع الظمأ، وبابه أن يكون مع العري، لكن الجوع والعري اشتركا في الخلو، فالجوع خُلوّ البطن من الطعام، والعري خلو الظاهر من اللباس، والضحى والظمأ اشتركا في الاحتراق، فالظمأ احتراق الباطن من العطش، والضَّحى احتراق الظاهر من حر الشمس (السّيوطيّ، 1408هـ - 1988م ،ج1/ص 315).

ففي هذا التقرير البلاغي ربط لظاهرة التقابل بما تحيل إليه تلك الألفاظ من دلالات وإيحاءات حصل التطابق في جزئياتها المعنوية مما مكن من تصنيفها في حيز هذه الصورة البلاغية حتى وإن بدت في الظاهر مباينة لها مغايرة للنسق العام لهذا اللون البلاغي.

. خاتمة:

من خلال تتبع أسلوب الطباق بمختلف أشكاله وصوره في الكلام العربي عموما وفي كتاب الله تعالى على وجه الخصوص ثم ملاحظة تحليلات البلاغيين وتقريراتهم حولها توصل البحث إلى ثلة من النتائج والتوصيات أجملها فيما يلي:

خالف قدامة بن جعفر إجماع البلاغيين على إطلاق المطابقة على الجمع بين الشّيء وضدِّه في الكلام انطلاقا من الأصل اللغوي للفظة،واختار قدامة إطلاق الطباق على ما تعارف عليه سائر البلاغيّين بمصطلح "الجِناس" ، في حين أطلق على صورة الطِّباق مصطلح "التّكافؤ"، ولا داعي لهذه المخالفة لأن مَن تَقدَّمه قد فصلوا في تحديد الأنواع وكَفَوه مؤونة الاصطلاح والتلقيب.

قسم أئمة البلاغة الطباق إلى محض صريح تحصل فيه مقابلة الشّيء بما يتنزل منه منزلة الضّدّ، وإلى غير محض تتم فيه مقابلة الشّيء بما يخالفه، غير أن حُسن هذا الصّنف مقيد بانتفاء البُعد الشّديد بين المُتقابلات بحيث لا يظهر وجه التّضادّ بينها.

جعل البلاغيون المقابَلَة أحد أقسام الطِّباق وفروعه مع تميزها عنه بشرط تعدّد المتضادّات فيها، ومما ظهر لي في هذا البحث عدم إلزامية اشتراط التّوافق بين أفراد

الطّرف الأوّل لصورة المقابلة إذا توفر عنصر التّضادّ . ولو جزئيّا . مع أفراد الطّرف الثّاني المتمّم لهذه الصّورة البديعيّة.

دلل البحث على أن براعة محسن الطباق في القرآن الكريم تنبع من جودة الربط بين الحسن اللفظي والتناسق النظمي والتوظيف المعنوي الدلالية في صورة تشد العقول وتبهج الأسماع بعيدا عن الاهتمام الأصم باللفظ ولو كان ذلك على حساب الدلالات والمعاني

مما تميز به الطباق في القرآن الكريم سلامته من التكلف واستقرار الكلمة فيه تمام الاستقرار في موضعها ، كما تسجل قوة التلاؤم بينه وبين مختلف الأساليب الواردة في السياق القرآني الكريم، ما جعله آية في الحسن وقمة في الجمال.

يشترك لون الطباق مع كثير من أقسام البديع التي لم تنل حقها من العناية والبحث كحال علمي المعاني والبيان، فينبغي زيادة الاهتمام والدراسة لمباحث هذا العلم وفق نظرة بلاغية راقية تحسن صورته وتحبب مسائله، والحمد لله رب العالمين.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

- القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.

-ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح: عصام شقيو، مكتبة الهلال، بيروت، ودار البحار، بيروت، الطّبعة الأخيرة – كذا -، سنة: 2004م

-ابن رشيق القيروانيّ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه،تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط: 5، سنة: 1401هـ - 1981م.

-ابن سنان الخفّاجيّ، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط: 1، سنة: 1402هـ - 1982م.

-ابن منظور الإفريقيّ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط: 3، سنة: 1414 هـ

-أحمد إبراهيم أبو موسى، الصّبغ البديعيّ في اللّغة العربيّة، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، د ط، سنة:1388هـ- 1969م.

-أحمد بن عبد الوهاب النّويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ط: 1، سنة: 1423هـ

-أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي، من بلاغة القرآن، نهضه مصر، القاهرة، د ط، 2005م.

-الأفوه الأوديّ، صَلاءة بن عمرو، ديوانه، تح: د.محمّد التّونجيّ، دار صادر، بيروت، ط: 1، سنة: 1998م.

-أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبريّ، شرح ديوان المتنبّي، تح: مصطفى السّقّا، وإبراهيم الأبياريّ، وعبد الحفيظ شلبيّ، دار المعرفة، بيروت، د ط، د ت.

أبو الفيض مرتضى الزّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، الكويت، د ط، د ت.

-أبو القاسم الحسن بن بشر الآمديّ، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ، تح: السّيد أحمد صقر، وعبد الله المحارب، دار المعارف،الرّياض، ومكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط:1، سنة: 1994م.

-أبو منصور الأزهريّ الهرويّ، تهذيب اللّغة، تح: محمّد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط: 1، سنة: 2001م .

أبو نصر إسماعيل الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، المعروف بـ"الصّحاح"، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط:4، سنة: 1407هـ - 1987م.

-أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1419 هـ .

-بدر الدّين الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمّد إبراهيم، أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، ط: 1، سنة: 1376هـ - 1957.

-جرير بن عطيّة، ديوانه، دار بيروت للطّباعة والنّشر، د ط، سنة: 1986م.

-جلال الدين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د ط، سنة: 1394هـ -1974م.

-حازم القرطاجنيّ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمّد بن الخوجة، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، ط: 3، سنة: 2008م.

-حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، د ط، د ت .

-الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم، بيروت، ط: 4، سنة: 1998م.

-شهاب الدّين محمود الألوسيّ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح: عليّ عطيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط: 1، سنة: 1415هـ.

-ضياء الدّين بن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، د ط، سنة: 1420هـ.

-عبد الرّحمن حَبَنَّكَة الميدانيّ، البلاغة العربيّة: أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، والدّار الشّاميّة، بيروت، ط: 1، سنة:1416هـ-1996م .

-عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، د ب، ط:1، 1413 هـ - 1992 م.

-عبد العظيم بن أبي الإصبع العدوانيّ، تحرير التّحبير في صناعة الشّعر والنّثر وبيان إعجاز القرآن، تح: د.حفني محمّد شرف، نشر: لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، الجمهورية العربيّة المتّحدة، د ط، د ت.

-قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تح:د.عبد المنعم الخفّاجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ط، د ت.

-محمد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، والمعنون بـ "تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" ، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، سنة: 1984هـ.